

سيمائية الفيض المائي

قراءة تحليلية

- لمقطع شعري من معلة امريء القيس -

أ. سطنبول ناصر

كلية الآداب، اللغات والفنون

جامعة وهــرن

النص: (*)

كلمع الينين في حبي مكلل
أمل السليط بالذبل المقلل
وبين الغيب بعدما متلكي
وأيسره على السائل فيذل
يكب على الأفق نوح الكهبل
فأزل منه العضم من كل منزل
ولا أطمأ الا مشيدا بجذل
كبير فليس في جبال مزمل
من السيل والأغاء فكسة معزل
نزول اليماني ذي العراب المحمل
صبحن سلافا من رحيق مفقل
بأرجله القصوى ألبيش غصل

أصاح تسمى برقاً أريك وميضه
يضيء سناه أو مصليح راهب
فعدت له وصحبي بين ضلج
على قطن بالشيم أيمن صوبه
فأضخى يسح الماء حوول كثيفة
ومر على القن من نفيتيه
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة
كل شيرافي عرئين وبله
كل نرى رأس المجمر غلوة
وألقى بصحراء الغيط بعاعه
كل مكلي الجواء غلية
كل السباع فيه غرقى عثية

يتميز هذا المقطع الشعري من معلة امريء القيس بتنشيدات تترجم نسق التسلسل التكويني المائي للمطر ، بحيث يتكشف فضاءه بتشعبات دلخية لها دلالتها النصية انطلاقاً من الطرح الكلي للمطر وما يفرع عنه من انساق صوغية ، وذلك بوصفه الكلية الكبرى التي تنبثق عنها جملة من التفرعات التي تعمل هي الأخرى على إحداث تفصلات جزئية .

يتأطر نسق التدرج المائي بين سيمائية الأفق العلوي (الراهب) وسيمائية الأفق الأرضي (اليماني) ، فالعلوي هو المضمهر الذي ينحصر في دلالة الترقب الذي تمليه الرغبة في تجسيد كواشف الحلم ، ذلك لأن طبيعة

المكان تتعارض مع فضاءات التوقعات العينية لسقوط المطر، ومن ثم فإن إمكانية الإفصاح الحلمي تنبئاً لسطورة الفيض المائي في المعطى السيميائي للراهب، بوصفه حقل التوقعات لتجلي حدوث الانبجاس المائي، وفضحة إمكانية الإعراب عن المعيشة الحلمية، فالراهب هو المضمّر في (أصل الفكر الانتباه التأملي، وبقدر ما يكون فعالية

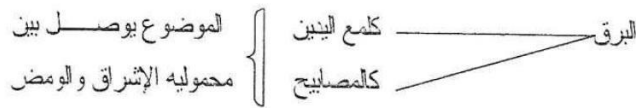
مفرحة يكون حركياً دينامياً) 1 .

إن التقابل القائم بين (الراهب) و (المطر) لم يفصح عنه النص الشعري ومن ثم تصبح هذه الثنائية مضمرة تؤكد لانتهائية التأويل لدلالات التعالق بينهما وعليه فقد ورد هذا التقابل من حيث موقعه التضميني ليس مجرد تقابل عرضي أو تابع غير معتمد داخل النص بقدر ما يمثل بؤرة النزوع الأولي للتوجس الحلمي لميلاد الماء، وكذا دلالة التوشح العلوي بالأرضي .

إن دلالة (الراهب) وردت من اللامرئي الذي يؤكد المرئي، لذلك فهو الحامل لكواشف الغائب في هيئة من المتواليات التي تتزاح فوق مستوى الحضور العيني للمطر فتكشف تجلياتها في دلالة الإشراق وشدة الومض وذلك بوصفها قرائن لسيميائية (الراهب) نظراً للملول الذي يؤديه من خلال التفريعات التراتبية التي يجليها النص، وعليه فهو يمثل نسقا من الإحياءات لقصدية الصيرورة الأجلة للانبجاس المائي، ومن ثم فهو يجلي جملة من التفريعات الجزئية التي تتقاطع مع التعيينات العينية لطبيعة التكوين المائي، كما أن إجرائية الربط التي يجسدها التشبيه مكنت النص الشعري من الولوج في مداراة نداعي المشاهد المكانيّة التي تشهد تشكل الفيض المائي وهذا انطلاقاً من التقويم الحكائي الذي ورد في استهلال المقطع الشعري وهو يقدم دلالة الراهب من خلال قرائن تؤكد فضاءه الإشراقي الذي يرهص لميلاد الفيض المائي / التعبدية / بعد ظلام الجذب المكاني / والسبت الجسدي /، لذا كان التكافؤ بين المطر والراهب يبرره هذا المنحى من التوازي، والذي ساهمت فيه جملة من الوشاح المتناظرة من جهة الحقل الدلالي، فكان ملول الراهب يكفيء ملول المطر في الإخصاب الروحي والتنفق التعبدية، وعليه فهو الحامل لملولات خصب الذات بعد سباتها، وكذا الأمر بالنسبة لمحمولات المطر الدلالية من حيث الإرواء والإحياء للمكان عقب الجذب وسائر أسباب القحط والمسغبة بفالصلة تعود إلى مقوم تراكمي يشكل بينهما .

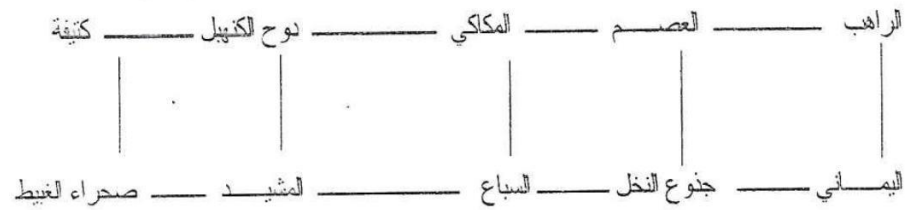
إن هذا التقابل لا يفصح النص به بقدر ما يتضمنه، فالمصرح به يتمثل في التقابل الوارد بين (البرق /

المصاييح) وعندما يأتي هذا التشاكل استناداً إلى الصوغ الشعري يصبح كالتالي :



أ. سلطانبول ناصر

ينطوي بناء النص الشعري على تكوين جوهري ، وعلى تأسيس لبنية مركزية تشكل نواة التعالق بين البنى الفرعية والأساق الدلالية ، ومؤدى هذه الكلية يتجلى في علاقة (الراهب / اليماني) ، التي يتفصل صوغها العلامتي بين المضممر والتكوين المظهر للفيض المائي ، لذلك نجد أن سياق الفيض المائي تتأطر دلالاته بين قطبي هذه الكلية الكبرى التي نترجم الحقل السيميائي للفيض المائي ، ابتداء من الانبجاس إلى دخوم الترعرع ، حيث التفوق والانهمار والانفجاع وانطلاقاً منها انجرت سلسلة من الثنائيات المتشاكلة بالتجانس بين الأساق العلامية دلالاتي العلوي والسفلي ذلك (لأن الائتلاف بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس ، فإذا عدم التجانس من وجهه ، انقضى التشاكل من كل وجهه ، ومع انقضاء التشاكل يعدم الائتلاف ، فثبت أن التجانس وإن تنوع أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف .) ولعل الذي شكل علة التجانس بين علامة (الماهل) الفيض المائي / الراهب ، وعلامة (الماهد) الفيض المائي / اليماني هي سلسلة التفرعات التي نترجم نسق التشاكل وفق هذا التوزيع الآتي:



إن التعالق القائم بين هذه الثنائيات ضبطها نسق علائقي يترتب في توزيع منظم تتحكم في مساره تيمة المطر بوصفه الإجرائية المهيمنة ، ومن ثم فهو الممثل الموزع لخيوط الانتشار ، والمفوز للنحو السوداني ، والمشكل لبؤرة التجلي داخل الخطاب الشعري لذلك فهو يشكل في هياكل متفرعة تتأسس على التوازي المتعدد من التمثيل الدلالي في مسارات متقابلة تكاد تكون إقتضائية تؤول إلى جوهر العلاقة الأصل (علاقة اليماني بالراهب) بوصفها علاقة إقتضائية هي الأخرى ، نظراً لكونها تقتضي الوقوف عند منطق التلازم ، فالأمر في سيرورة الحدث مبرر بحضورهما ، ومؤدى ذلك يؤول إلى التعالق التعييني بين البرق والمطر ، وبناء على هذا ورد التلازم الثنائي بين الوحدات الفرعية مبرراً للتعالق الدلالي بين الراهب واليماني .

إن علاقة المطر / الراهب تلخص المنقلى الحقل التعييني ، فينصب القصد منها على مسألة التزاوج بين دلالاتي الفيض الروحي والحسي معا ، وحين ينزاح هذا التقابل عن محدونية أفق المستوى التعييني ينتهي بالضرورة إلى الحقل الدلالي ، لوراد في هذا النحو :

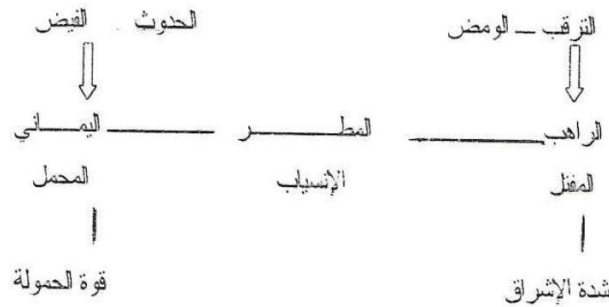
المطر	_____	الراهب/ اليماني
دل	_____	مدلول (الدلالة التعبيرية)
دل	_____	مدلول (الدلالة التعبيرية)

إن الدلالة التعبيرية (المطر / الراهب - اليماني) تؤدي بالمنطقي (إلى قول ما لا يقال في القول نفسه) وهذا نتيجة تعاضد الدلالة التعبيرية بالدلالة التعبيرية، فالراهب / اليماني وهما خارج نسق النص يشكلان المرجعية التعبيرية لدى المنطقي من حيث المعطى الفيلولوجي، ومن ثم فهما يمثلان حقل النقصي لمستوى الدلالات.

إن المدلولات التي تتالي عن دلالة الراهب/ اليماني تظل تجسد لدى المنطقي لانتهائية التكليل، نظراً لما يفصح عنه النص الشعري، وذلك بوصفها تؤكد توارد التعالق اللانتهائي بين دلالة الراهب/ اليماني (العووي الأرضي) في كثير من التقابلات والتي تتم عن التراكم الدلالي الذي يؤول في مجموعه إلى التقابل الكلي.

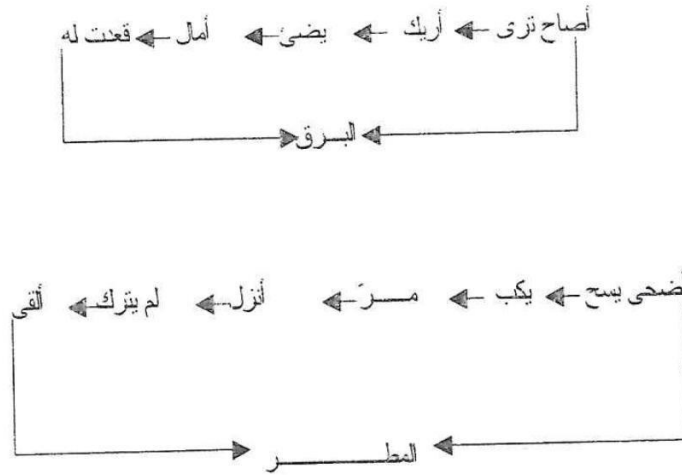
إن تيمة المطر تماثل محور التماس (la tangence) في الاصطلاح الهندسي بين الراهب/ اليماني (حيث يتم الاشتراك نتيجة هذه المحاذاة في نقطة واحدة، فبحث التماس في اشتراك ظاهرتين أو معطيين في خاصية لهما، وجراء هذا التماس يتداخلان (الراهب/ اليماني)

في تيمة المطر وتردوج (وظيفتهما) عادة مع مصطلح التداخل وهو درجة أكبر في الاسترجاع دون التطبيق (la superposition)، وهذا ما يأتي بيانه في هذا النحو:



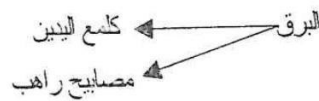
إن التعاضد التالي الذي يشكل القطب الجوهر ضمن هذا المقطع (الراهب/ اليماني)، هو تعاضد ضدي يقدم ذاته للمنطقي بمثابة المدار، (والمدار يتدخل هنا - باعتباره فرضية تعاضدية في سبيل أن تنشأ الأحوال المشتركة) أو نحو ما يذهب إليه امبرتو إيكو² هو تعقل صياغة النص، والانتظام الذي يعزى مسلك النص، فالمدار هو ما ينبغي تفصيله لدى القارئ بوصفه هو الضابط والمنبئ بتوجه النص من خلال النموذج معين من

الترتيب ، وبناء على ذلك يقدم فرضيته الخاصة ، وما ألفينا حضوره ضمن هذا المقطع (الراهب / اليماني) يشكل فرضية المدار التي توجه بنية المدار الإخبارية أو الشبه السردية لعالم هذا المقطع الشعري وفق هذا النحو :



إن نيمة المطر قدمت هذا النسق المتوازي بين (البرق / الترقب) و (المطر / الحوث) في ثنائية قطبية شكلت مدار النص ، الموزع لخيوط الانتشار والمفرز للنحو السردية 3 ، وذلك بوصفه بؤرة لتجلي الخطاب الشعري ومن ثم فهو الشكل لجملة من التفرعات المتوازية ، (الخطاطة السردية هي ناظم منطقي لمجموع عناصر النص) - وما يتضح أن النص الشعري يتسم بفعل القص لحقل التعدد ولفضاء الترابط ، ومن ثم يأتي نسق التعلق الذي ينتج من خلال الحقل البلاغي الذي يسهم بدوره في إنكاء فاعلية التوارد الدائب لآلية الترابط الذي يتحكم فيه منطق الانجس المائي المبني على مسألة التجاور الذي يؤدي به الالتزام بالآخر المقابل ، فالتجاور يقتضي ضرورة الاقتران وفسق عليه العلاقة سواء

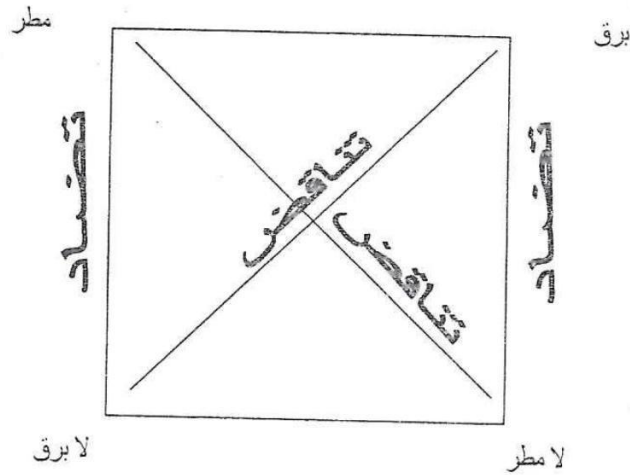
عن طريق الالتزام أو التطابق (التشابه) ، وهذا ما يجعل من خلال نظامه البلاغي يتضمن المسار الحكائي نتيجة ما تؤديه منظومة المتواليات المتعاقبة وهي تسهم في صياغة هذا المقطع الشعري بناء على سلم ترجيع التشبيات وفق هذا النحو :

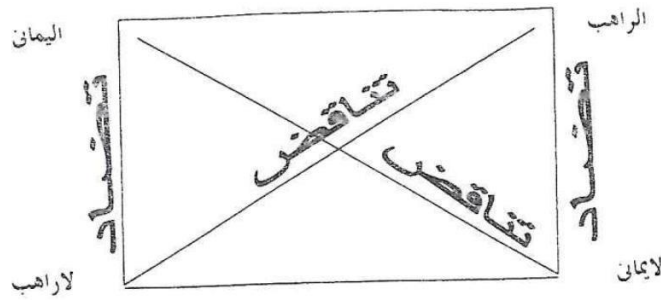


المطر ←
 كأن ثبيراً في عرائن وبله كبير أنلر في بجاد مزمل
 كأن نرى رأس المجير من السيل والأغناء فلكة مغزل
 وألقى..... نزول اليماني ذي العياب المحمل
 كأن مكلكي الجواء صبحن سلاقاً من رحيق مفضل
 كأن السباع فيه عرقى عشية..... أنلش غنصل

إن هذا التوارد البلاغي لجملة التشبيهات هو تقديم لمسار الفيض اليماني في هيئة من التوالج الجمالي المتدرج في نسقية تتداعى بإجرائية ترجيع التشبيهات ذلك أن تيمة المطر يتصد تشكها بلاغياً وفي مقابل ذلك تأتي إمكانية توارد المدلول من المحتمل (الذي يتتظهر في البلاغة، ومن ثم يصبح كل خطاب خطاباً منظماً بلاغياً نصاً محتملاً، وعليه يصبح المعنى هو تعيين للكلام وإنتاجية النص... المحتمل هو معنى خطاب بلاغي معين، أما المعنى فهو محتمل كل خطاب، المحتمل يقدم نفسه كتعدد دلالي، (بوصفه) تعدداً دلالياً للوحدات الكبرى للخطاب (5).

إن علاقة البرق بالمطر هي علاقة اقتضائية، كأن نقول لا برق لا مطر وهذه الترتيبية في حل الإيجاب أو السلب تظل تلازمية اقتضائية في الحضور والتعلق، وهذا ما يجليه النموذج التكويني خاصة وهو يقدم التوليد المتعدد من مستوى الشكالية (البرق/المطر) (الراهب/اليماني) بوصفها التركيب الأصل إلى التركيب المتعدد الفرع، والذي ينفرع بفرع بدوره وفق حالات التضاد / التناقض / الاقتضاء / إلى فضاء دلالي يتشظى في هيئة من التوزيع الجزئي:





تنوزع الثنائيات الفرعية بين دلالاتي العلوي والسفلي وفق نسق تركيب الكلية الكبرى التي تنفرع عنها ، ومن خلال عليه الترابط تتداول هذه الثنائيات في شكل صيغ متعاقبة تمثل جملة المكونات الجوهرية ، في مقابل ذلك تحضرنا البنية المظهرة التي تترجم علاقة المطر باليماني ، ذلك أن دلالة اليماني تتعارض مع دلالة الراهب (من جهة المستوى التعيني) غير أنها تقتضي حضورها (من جهة المستوى التعيري) ، فاليماني يجلي سيميائية الفيض المائي من حيث النقل والامتداد في التدفق والانسحاب ، كذلك يجلي دلالة التملس بالطلق الأرضي . خلاف الراهب الذي يجلي سيميائية الإشراق والومض ، دلالة المطلق العلوي السماوي المستشرف لما قبل التكوين المائي .

يتسم الفيض المائي لدى الشاعر بنزعة تمييزية امتدت - من خلال النص الشعري - إلى حقل ميثولوجي، تأطر ضمن قطبين يترجم كل منهما دلالة البقاء ، فالعصم تجلي في الميثولوجيا العربية ديمومة البقاء (وهي الوعول التي برد نكرها كثيرا في مراثيهم وفي مروبائهم الحكائية رغبة منهم في البقاء) ، ومن ثم فقد وردت ضمن هذا المقطع وهي تجلي سيميائية البقاء المشرب في علو المطلق السماوي في مقابل (جنوع النخل) التي تعكس عمق المطلق الأرضي في اليخضور وسر البقاء ، وعليه فهذا الفرع الثنائي هو فرع من أصل الكلية الثنائية التي تؤول إلى تعالق الراهب باليماني ، ومن ثم يأتي نسق التعالق الذي ينتجه النص الشعري من جهة الحقل البلاغي الذي يسهم بدوره في إكفاء فاعلية التوارد الدائب لنسق الترابط الذي ينصوي بالضرورة إلى منطق التجاور والالتزام ، فالتجاور يقتضي ضرورة الاقتران وفق عليه العلاقة سواء عن طريق الالتزام أو التطابق (التشابه) ، وهذا ما يؤدي بالنص الشعري تضمن مسار الاقتران الثنائي في منظومة من التعالق المتعدد، انطلاقا من الكلية الأصل (البرق/ المصليح المطر/ الراهب - اليماني) والتي يبينها في هذا النحو:

المطر	المطر	المصليح	البرق	المصليح
الراهب	اليماني	الراهب	المطر	البرق

تطابق المضمير / تطابق المظهر / التزام / التزام / تطابق

أ. سطنبول ناصر

إن التقابل بين المطر / الراهب - اليماني يقدم للمتلقي مسألة المحتمل الدلالي ، الذي ينجر عن المدلولات التي تتألي في مدار من التوليد التقابلي، والتي تتل في نهاية الأمر عن التراكم الدلالي الذي يؤول في مجموعه إلى التقابل الكلي الأصل .

الإحالات:

- * - لبيون : - نيون لمري قيس - دار بيروت - 1972 - ص/59...63 .
- 1 - بئلاز (غلستون) : فنار في التحليل النفسي - تر/ نهاد خياط - دار الأتلس - بيروت - ط / 1 - 1984 - ص/ 92 .
- 2 - ينظر : إيكو (لميرتو) : الفراء في الحكاية - تر/ لطون لوزيد - المركز الثقافي العربي ص/ 115-116 .
- 3 - ينظر : بنكراد : بنكراد (سعيد) مدخل إلى السيميائيات السردية - دار نيفل للطباعة و النشر - المركز الثقافي العربي - مراكش / المغرب ط/ 1-1994 - ص/ 115-116 .
- 4 - المرجع نفسه : ينظر : ص/ 73 .
- 5 - كريستيفا (جوليا) : علم النص - تر/ فريد لواهي - دار توبقل - المغرب ص/ 48 .

